"السّيميائيات بين الإعلام واللّسانيات"

(دراسة من خلال مفهومي العلامة والرّمز)

دحمود السالم
أستاذ جامعي، وباحث أكاديمي
حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سوسة–تونس
في اللّغة العربيّة وآدابها وحضارتها

المقدّمة:

نحاول في هذه المقدّمة أن نضع السيميائيّة، أو السيميولوجيا في سياقها العام، فنقول إنها تستمد معارفها من العديد من العلوم، مثل: اللسانيات، الفلسفة، المنطق، وغيرها من العلوم.

وعلى الرغم من ترابطها الوثيق بهذه المعارف أو العلوم إلا أنّها حافظت على كيان مستقل سمح لها أن تتأسّس كعلم قائم بذاته، يتميز بخصائص تفصله عن غيره، وقد استطاع هذا النشاط المعرفيّ أن يؤسس موضوعا للدرس وأن يحدّد أساليبه الخاصة به للتطور والتحليل. واستنادا إلى ما سبق فإن أيّ حديث عن هذا العلم يتطلب منا العودة إلى المنابع الأولى له، والرجوع إلى كتابات أبرز المؤسسين، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا بأنّ هذا التمشي المنهجيّ يجنبنا العديد من العقبات وذلك لأمرين.

أولا: العودة إلى المؤسّسين هي مدخل يقود الدارسين إلى صميم المسألة والتدقيق في المفاهيم البانية أو المؤسسة للعلم.

ثانيا: أنها تجنّبنا الخوض في الكثير من التفاصيل المتعلقة بالتيارات والاتجاهات التي تناولت السيميولوجيا أو السيميائية.

وعلى هذا الأساس فإننا نتناول في هذا الدرس العديد من المسائل التي نحددها في ما يلي:

–قضايا تتعلق بدلالة المصطلح وتعريف المفهوم.

– الوقوف على المفهومين الذين جعلناهما محور هذا البحث، وهما مفهوم العلامة، والرّمز.

–النّظر في الجذور اللّسانية المؤسّسة لهذا العلم.

–المسائل المتعلقة بالجانب الإعلامي.

1. في دلالة المصلح وتعريف المفهوم

نروم من خلال هذا المحور أن نعرّف مفهوم السيميائيّة أو السيميولوجيا وذلك يستدعي منا الوقوف على أمرين:

–المصطلح

– التعريف

1.1 المصطلح (السيميائيّة/السّيميولوجيا)

يمكن القول إنّ أبرز ما يميّز المصطلح هي أن هناك العديد من المصطلحات التي تعبر عن هذا العلم وتصدق عليها ولعل أبرزها:

–السيميائيات

–السيميولوجيا

–علم الدلائل

أما كلمة **السيميولوجيا** فمركبة من كلمتين يونانيتين، إحداهما تعني العلامة أو الدليل، والأخرى تعني العلم.

-وأما كلمة **السيميائية** فهي تعريب لذات الكلمة الغربية إلا أنّه تعريب يتميّز بأن له أصلا في العربية، فهي مشتقة من الوسم أي العلامة .

-أما **علم الدلائل** فهي ترجمة اعتمدها الدكتور محمد الشاوس في ترجمته كتاب "دروس في الألسنة العامة" للعالم اللّسانيّ فرديناند دي سوسير.

2.1 تعريف السيميولوجيا:

من أجل الوقوف على تعريف السيميولوجيا نعود إلى ما كتبه دي سوسير حيث يرى أنّها "علم يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية"(دي سوسير، دروس في اللّسانيات العامّة،ص، 36).

ويعرّفها امبرتو إيكو حين يقول: "... فالسّيميائيّة الخصوصيّة هي نحو يخصّنظاما معيّنا من العلامات. إذ توجد أنحاء للّغة الحركيّة المستعملة عند البكم الأمريكيين وأنحاء للّغة الإنجليزيّة، وأنحاء لعلامات المرور. وأستعمل عبارة أنحاء في معناها الأوسع، أي أنّها إلى جانب قواعد التّركيب والدّلالة تحتوي أيضا على جملة من التّداوليّة"(امبرتو إيكو، السّيميائية وفلسفة اللّغة، ص، 34).

وهذان التعريفان وإن كانا يختلفان في اللفظ فهما متحدان في المعنى باعتبار أن الدلائل هي نفسها العلامات. كما نستخلص منهما أن هناك العديد من المفاهيم البانية لهذا العلم وبطبيعة الحال توجد مفاهيم مجاورة لها. وذلك مثل مفهوم العلامة الذي منه ما هو لساني ومنه ما هو سيميولوجي وذلك ما نتوسع في الحديث عنه في ما يلي.

2. مفهوم العلامة:

إنّ العلامات منها ما هو لساني ومنها ما هو سيميائي، وفي هذا المحور نتناول الجانبين بإيجاز.

1.2 العلامات اللسانية

حسب دي سوسير تتألف العلامة اللّسانيّة من ثلاثة عناصر هي:

-الدال

-المدلول

-الصورة الصوتية

وبطبيعة الحال يوجد ترابط وثيق بين هذه العناصر الثلاثة. ونشير هنا إلى أن الأصل في العلامة اللسانية أن تكون منطوقة ثمّ جاءت الكتابة فصارت العلامة المكتوبة فرعا عنها، ويعدّ اختراع الكتابة أوّل تطوّر لغوي في تاريخ البشرية، ويعرف أرسطو الكتابة حين يقول: "إن الأصوات التي تصدر عن النطق البشري هي رموز تعبر عن حالات النفس والكلمات المكتوبة هي رموز لهذه الكلمات الصادرة عن النطق".

2.2. العلامات السيميائية:

إن مصطلح علامة سيميولوجية أو سيميائية جامع لمختلف الأشياء التي ليست لغوية وذلك مثل: الدخان يشير إلى النار، جرس يشير إلى انتهاء الحصة، صورة شمسية في بطاقة في بطاقة الهوية علامة أن هذه المعلومات التي في الهوية هي لها حسب الصورة.

ويقسم امبرتو ايكو هذه العلامات إلى صنفين:

أوّلهما بمعنى الدليل مثل: من لديه حمى فهو مريض.

الثاني هو علامة ضعيفة مثل: إن كان تنفسه مضطربا فلديه حمّى. وهذا الاستنتاج كما نرى هو ظني لأنه يمكن أن يكون اضطرابا تنفسه من جراء العدوِ.

3. مفهوم الرّمز:

نواصل الحديث عن المفاهيم البانية لعلم السيميولوجيا ونتطرق هنا إلى مفهوم "الرمز" الذي هو كل ما يرمز داخل فيه:

- اللغة ترمز بحيث أننا نجد بعض الكلمات الرمزية.
- الصورة ترمز مثل رمزية صورة الميزان على العدل، ورمزية صورة الحمام على السلام.
- الألوان فكلّ لون له رمزيته

وبهذا الاعتبار يمكن أن نعرّف الرمز بأنّه "شيء داخل يستعمل للإحالة على مدلول عن طريق العرف والتواضع."

وقد أسهمت الدراسات المعاصرة في الكشف عن الكثير من أبعاد هذا التطور وقدرته على إيضاح الكثير من التصورات الحضارية الخاصة برحلة الإنسان على الأرض، ونقتصر هنا على الحديث عن رمزية الصورة ودلالتها ورمزية الألوان.

1.3 الصورة وإنتاج المعنى

إن اللغة البصرية التي يتم من خلالها إنتاج الدلالات داخل الصورة هي لغة بالغة التركيب والتنوع، ومن أجل بناء مادّتها تعتمد على مكونين:

- البعد العلاماتي الأيقوني
- البعد العلاماتي التشكيلي

فالرسالة البصرية من أجل إنتاج معانيها تستند إلى المعطيات التي يوفرها التمثيل الأيقوني باعتباره إنتاجا بصريا لموجودات طبيعية تامّة (وجوه، أجسام، حيوانات، إلخ ..)(عواطف زراري، محاضرات في السيميولوجيا العامّة، ص، 90)

وتستند من جهة ثانية إلى معطيات من طبيعة أخرى، أي إلى عناصر ليست من الطبيعة ولا من الكائنات التي تؤثث هذه الطبيعة. ويتعلق الأمر بما يطلق عليه التمثيل التشكيلي للحالات الإنسانية، أي العلامات التشكيلة والتي تتكون من الأشكال والخطوط والألوان والتركيب.

إن البعد التضميني والدلالي للصورة هو نتاج تركيب يجمع بين ما ينتمي إلى البعد الأيقوني والبعد التشكيلي مجسّدا من صنع الإنسان وتصرف العناصر الطبيعية بتراكم تجاربه وثقافته. وتعد الصورة من هذه الزاويه ملفوظا بصريا مركبا ينتج دلالته استنادا إلى التفاعل القائم بين مسْتَوَيين مختلفين في الطبيعه لكنهما متكاملان في الوجود ، فكما أن العلامة الأيقونية تشير إلى إنتاج المعنى فإن العلامة التشكيلية لا تشتغل باعتبارها كذلك إلا في حدود تأويلها ككيان حامل لدلالات(المرجع السّابق، ص، 91).

من هذا المنطلق يمكن طرح قضية الدلالة والتدليل في الرسالة البصرية وكيف يتحول المرجع الفوتوغرافي من الحياد والصمت إلى علامة، وإلى نص، لا ينفلت من لعبة المعنى.

2.3. الألوان ورمزيتها:

يمكن أن نعرّف اللون بأنه "موجة شعاعية تصل إلى العين وتحدث داخلها تحولات كهربائية يقودها العصب البصري في شكل تيارات إلى الدماغ"(المرجع السّابق، ص، 80).

وما دام اللون يمتلك قوة جذب النظر وله قدرة على إثارة الاهتمام بتناقضاته وانسجامه فهذا يعني أنّ له قدرة على تشكيل الإيحاءات وإحداث تأثيرات نفسيه على الإنسان.

وتختلف دلالة الألوان ورمزيتها تبعا للون فالأحمر –على سبيل المثال– لارتباطه بالحرارة، هو رمز العاطفة من ناحية ، ومرتبط بالدم من جهة أخرى ، والأصفر مرتبط بالشمس والذهب، والأخضر مرتبط بالطبيعة، والبياض رمز النقاء والبراءة والسلام، والأسود عكس ذلك.

وإذا كانت الألوان تتفق عالميا في إيحاءاتها وارتباطاتها إلى حد ما فإنّ بعض الألوان لها بعض الخصوصيات المرتبطة بثقافة معينه وهذا يعني أن كل رمز لوني يستقي دلالته من المحيط الثقافي الذي ينتمي إليه.

4. الخاتمة:

نستخلص مما سبق أنّ السيميولوجيا أو السيميائية هي علم بدأت إرهاصاته الأولى – بشكل بارز – مع التصورات التي قدمها فيردينان دي سوسير، ثم جاء الدارسون وطوروا المفاهيم البانيه لهذا العلم حتى صار مستقلا بذاته متميزا عن غيره، له مبادئه التي ينطلق منها وله أسسه التي ينبني عليها.

ويمكن أن نستنتج في هذا السياق أنّ السيميولوجيا تشتمل على مفاهيم يمكن أن يستفاد منها في الحقل الإعلامي ولعلنا نحدد ذلك في :

- أن الإعلامي بالعودة إلى هذا العلم بإمكانه أن يطور ملكته في الإدراك والتواصل.
- أن المفاهيم السيميولوجيه من قبيل العلامة والرمز ونحوهما يمكن أن تساهم في خلق الإبداع وتطوير الكفاءة لدى المهتمين بمجال الإعلام.

ولاشك أن النّقاط لا تنحصر في هذا بل تتعدد بتعدد الدارسين وباختلاف زوايا النظر التي ينطلقون منها.

المراجع:

- اتشاندلر(دانيال) أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، الطّبعة الأولى، بيروت، 2008.
- الشيباني (عبد القادر) معالم السّيميائات العامّة، الطبعة الأولى،2008.
- ايكو (امبرتو) السيميائية وفلسفة اللّغة، ترجمة أحمد الصّمعي، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، الطّبعة الأولى، بيروت، 2005.
- بنكراد (سعيد) السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، طبعة دار الحوار.
- زراري (عواطف) دروس في السيميائيات العامة.
- دي سوسير (فيردينان) دروس في الألسنيّة العامّة، ترجمة: محمد الشّاوش، ومحمد عجينة، مراجعة صالح القرمادي الدّار العربيّة للكتاب، 1985.